رحيل الشاعر مهدي محمد علي.. الحجّ إلى جنة البستان

مبدع آخر يغيّبه الموت، وتحتضن مقابر الغرباء جسده الذي استنزفته الغربة والحنين الى الوطن، بينما روحه ترنو إلى جنة البستان البصرة حيث التهجي الأول ، ومرتع الأحلام.. هل أتعبته المنافي حد الرحيل الأبدي؟، أم تراه لم يجد سوى الموت بديلا للوطن؟، أم أنه اختار الرحيل بحسرة أغنية لم تكتمل؟ أكثر من ثلاثة عقود من النفي كانت فيها القصيدة تجسيدا لحلم في أن يرحل (نحو الوطن المغلوب.. بقطار تحت الأرض، يمر بأحياء تحت الأرض، ومحطات تكتظ بأعداء وعيون جواسيس). مهدي محمد علي أثخنت روحه الشاعرة جراح الوطن المغلوب، وحلم العودة.. رحل بصمت في منفاه الحلبي، بموت يشبه روحه التي لم تتقن يوما فنون الادعاء، لتعلن عن شاعريتها ، فقد اختار أن ينزوي بعيدا عن صخب المدعين.. سيرة حافلة اندغم فيها النضال بالشعر، منذ مطلع سبعينات القرن المنصرم، مروراً بالتيه في صحراء البادية الجنوبية هربا من غدر الفاشست، وليس انتهاء بالمنفى الأخير.. المدى الثقافي استعانت بمحبي وأصدقاء الشاعر الراحل مهدي محمد علي لإضاءة جوانب من سيرته الحياتية والإبداعية.

علاء المفرجي

المدى الثقافي

ألا يكفيك مجدان؟

فاضل السلطاني

الشاعر أم الإنسان؟ ما أسهل الفصل بينهما، للأسف، في كثير من الشعراء. لكن من يستطيع أن يفصل بينهما في مهدي؟

في بداية السبعينات وصلنا صوت مهدي من البصرة مع الأعداد الأولى من (طريق الشعب)، صافيا، نقيا، بلا إدعاء. سألت عنه أحد الأصدقاء، الذي التقاه صدفة في البصرة، فأجابني:

إنه يشبه قصيدته.. صافيا، ونقيا، وتلقائيا مثلها!

لم يتغير مهدي، ولم تتغير قصيدته. سارا معا بخطى متوازية. لم يثقل مهدي الإنسان فيه بأمراض المنفى المعروفة، ولم ترهق قصيدته نفسها بلعبة التجريب، واستلهامات الحداثة وبعدها. ظل الاثنان نقيين بلا إدعاء، وكأن أحدهما مكتف بالآخر.

في منتصف الثمانينات تعرفت الى مهدي للمرة الاولى في منفانا السوري المشترك، فتذكرت قول صديقي: إنه يشبه قصيدته. كم شاعرا منا يشبه قصيدته؟

ومع الزمن، تبينت أن مهدي يشبه مدينته البصرة أيضا: بسيطا، ونقيا، وفقيرا مثلها. لقد اعتاد أن يوقع قصيدته بـ(بصرة حلب). وكنت أقول: هو وهم آخر من أوهامنا في المنفى. فالبصرة بصرة، وحلب حلب، والمنفى لا يصير وطنا. كنت واهما. من قال إن الأوطان لا تسافر؟ حطت البصرة في حلب، مخلّفة وراءها حروبها، وخرائبها، وخرابها، بل تحولت إلى (جنة البستان) في حلب.

كم شاعراً يشبه مدينته؟

كم شاعراً يشبه قصيدته؟

ألا يكفيك هذان المجدان يا مهدي؟

الشاعر البريء

صلاح نيازي

لم يلحّ شاعر من قبل على جغرافية بعينها كما ألحّ الشاعر مهدي محمد علي على مدينته البصرة.

ربما كانت كتابه الوحيد يقرأه ويقرأه بشغف واستملاح، أو نهره الوحيد الذي يبرر وجود كائناته.

ربما لهذا السبب لم يشعْ شعره ولم يصبحْ إيقاعاً متداولاً.

الشاعر الرائج يتخذ صيغة نهر جار يُخصبُ جغرافيات مختلفة وتمتلئ حواصل الطيور وثمار الأشجار بمائه وإلاّ أصبح بئراً بيتية ذات نفع خاص.

الغريب أن مهدي محمد علي لم يجعل مدينته في غربته طلالاً بالياً مأهولاً بالأشباح، كما في الشعر القديم ولم تنتزعه أمواج الحنين وتقذفه في ماضيه وملاعب صباه، كما فعل الكاظمي والجواهري والسياب. هؤلاء كانوا يعيشون جسداً بمكان وروحاً بمكان آخر. لهذا السبب يتميز شعر الحنين بالمسافة الطويلة التي تفصل الشاعر عن الموضوع الذي يكتب عنه.

جغرافية البصرة التي عنى بها مهدي محمد علي كانت في داخله، لذا فهي خالية من الزمان والمكان وما من مسافة تفصل ما بينهما.

هكذا تفردت بعض قصائد مهدي محمد علي أعني تلك التي نشرها في مجلة الثقافة الجديدة وتميزت بتفصيلات جمّة عن أسماء شوارع ومخازن وسينمات وأشخاص ومكتبات لدرجة تجعل القارئ يُحسّن بمدينة البصرة وهي تمارس يومياتها الاعتيادية حتى لتكاد تراها أمامك تتنفّس وتسمعها تثرثر. إنها بهذا المعنى مدينة أشبه بمدينة دبلن كما صوّرها جيمس جويس في رواية يوليسيس. هاتان المدينتان وهما على تلك الصورة لا مثيل لهما حتى في أدقّ الكتب السياحية لأن الكتب السياحية انتقائية ولا تعنى بحركة الناس وهم يتداولون العيش والرزق.

هل كتب مهدي محمد علي بتلك الحميمية لأن هاجسه دلّه على ما ستؤول إليه البصرة؟ هل كان خرابها التاريخي ماثلاً له؟ ثمّة تطير خفي مرعب في قصائد هذا الشاعر البريء.

غياب الشاعر يذكّرنا بسؤال حسبناه انتهى

فيصل عبد الله

لم يبق لصوت المثقف الحر من هامش، أو خيارات كبيرة. كم من الشعراء وكتاب القصة والفنانين فضل الصمت، على أن يبيع ضميره. هكذا بين المرضي عنهم، وبين من يُشك في ولائهم، تحددت الخيارات ومعها الطرق السالكة والممكنة. رحلة افتراق المصائر تلك، بدأت في نهاية سبعينات القرن الفائت، وشملت أسماء شعراء وفنانين وكتاب وسياسيين، كان بينهم الشاعر مهدي محمد علي.

ذلك الشاب الأسمر، صاحب العدسات الطبية، الهادئ، المتواضع، صاحب الصوت الأقرب للهمس والكاظم على سره السياسي كما العاشق الكتوم. كلما التقيته في الشام، لا أعرف بالضبط لماذا أختار الإقامة في حلب، كان يهجس بأمل إصلاح الثقافة العراقية. ولكن من باب تنشيط ملف أدب وفن في مجلة (الثقافة الجديدة) للحزب الشيوعي العراقي، تلك التي أغناها بالكثير من المتابعات، وبجهد شخصي لا يخفي نكران الذات. لم تغره أضواء الإعلام، ولا تسليع نفسه عبر خيارات معروفة.

جندي نذر نفسه لقضية كبيرة، اسمها العراق وثقافته الحرة والديمقراطية. قلبٌ ظلت تؤشر بوصلته مكانا واحدا لا غير، وهو؛ البصرة.

لكن وفاة الإنسان والشاعر مهدي محمد علي، وبالتحديد في هذا الوقت، يعيد لنا السؤال مرة ثانية. لماذا فضل مهدي وغيره البقاء في المنفى؟ وهل المنفى السوري أكثر رحمة من البلد الأول؟ لعل مفردات واقع العراق السياسي والثقافي الجديدين، وعطب مؤسساتنا الثقافية تحمل الجواب. والقائل لا مكان لمهدي، أو غيره، وسط حفلات المصاهرة المذهبية والطائفية والعشائرية.

وسط مزوّري التواريخ والسير والمواقف. وسط حاملي المباخر الجدد. لربما غابة (مقبرة الغرباء)، حيث يرقد هناك الجواهري وهادي العلوي ومصطفى جمال الدين وسعود الناصري وغيرهم، ستكون أكثر رحمة من بلاد طاردة لأبنائها النجب. هناك سيردد كلمات قصيدة غريب على الخليج لابن مدينته السياب "لو جئت في البلد البعيد إليّ ما كمل اللقاء. الملتقى بك والعراق على يديّ.....هو اللقاء".

ذلك المنفى الذي حسبناه انتهى، بنهاية حقبة قاسية من تاريخ العراق السياسي المعاصر في التاسع من نيسان/أبريل ٢٠٠٣.

يعيده لنا بشكل حارق غياب الشاعر البصري مهدي محمد علي، في أحد المستشفيات السورية يوم الأربعاء الجاري. قبل ذلك التاريخ كان السؤال محسوماً، سلطة دكتاتورية أرادت أن تجيرّ كل شيء باسمها حتى أصوات العصافير.

ومثقف متمرد على إلزاماتها وعدته موقف سياسي شجاع، وبضع كلمات يجد فيها عزاء حريته المنتهكة. وقتها كان الانخراط في جوقة الطبالين يسري في عروق الثقافة العراقية على قدم وساق، وفي لعبة مخاتلة شعارها (وياها وياها) حسب ما تجود به الأريحية العراقية.

إزاء معادلة محسومة العواقب، ومثقف متمرد على إلزاماتها وعدته موقف سياسي شجاع، وبضع كلمات يجد فيها عزاء حريته المنتهكة. وقتها كان الانخراط في جوقة الطبالين يسري في عروق الثقافة العراقية على قدم وساق، وفي لعبة مخاتلة شعارها (وياها وياها) حسب ما تجود به الأريحية العراقية.

إزاء معادلة محسومة العواقب،

قصائد

عبد الكريم كاصد

إلى مهدي محمد علي

١

ذلك الخرج
تذكرهُ؟
لم يكن غيرَ كسرة خبزٍ
وبضعة أشياء
نحملها في الطريق
أنلقيه؟
أم أننا
حين أقبلت الناس
واكتظت السوق
قلنا: بضاعتنا هذه
هل تُردّ إلينا؟

٢

أجل أيّها الصديق
هناك مَنْ سيأتي
- وقد أتى
حاملاً حطب الشتاء إلى
الصيف
مستظلاً بنار الظهيرة
لاعناً قشعريرة الشعر
أجلْ
وسيهلل له الكثيرون

٣

قد نضيع الطريق إلى البيت
ونحمل أشعارنا في محفّةٍ
ناقمين على الأرض
عنودين
صابرين
لا يرانا أحد
في هذا الملعب الواسع
الذي غصّ بالشعراء

٤

سأسرّكَ بنبأ عظيم
لا أحتملهُ
وقد أرهقني
لقد ولدتُ جبلاً
وهاهي إحدى علاماته:
صخرة الشعر
وينبوعها الذي يسيل

من ديوان(دقات لا يبلغها الضوء)/دار الكنوز الأدبية/ بيروت- ط١ /١٩٩٨

الشاعر مهدي محمد علي.. وداعاً!

بمشاعر حزن بالغ وألم عميق تنعى هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) نبأ رحيل عضو مجلس تحريرها والمسؤول عن باب: أدب وفن فيها لعدة سنوات الفقيد الشاعر المبدع مهدي محمد علي.

هكذا إذن انسحب مهدي وقرر أن ينام سائرا في رحلته الأبدية.... غادرنا بهدوء كحمامة حملت ريشها لتسافر... غادرنا (أبو أطياف)، الذي كان حبيباً كالبراءة، جميلا كغرسة زيتون، صادقا كطفل، غادرنا المسكون بحب مدينته الغافية على الخليج مجسداً ذلك في: "البصرة.. جنة البستان .. ذاكرة نثرية"، حيث الروح الملتبسة بحب الوطن والبصرة. في هذا العمل تنبأ مهدي انه لن يعود إلى بصرته إلا بعد سنين طويلة، وربما لن يعود أبداً، ويبدو أنه أدرك في ومضة الشعر أن الريح ستركن للسكون، وأن الورد وحده هو الطائر الذي يطير عكس اتجاه الريح. لكن "جنة البستان"، التي كتب عنها مهدي قائلا: "قررت أن أحمل بصرتي معي مهما تتبدل المنافي والبلدان"، ستبقى بانتظار عودته الى شواطئها التي ما زالت تفتح عيونها لينام فيها ابناً باراً لها فهي تشتاق الى فوانيس روحه تضيء أعماقها.

في الرحيل الأبدي للجميل مهدي نحمل معا باقة ورد حمراء ونوقد شمعة ونسمع في وداعه مطرا قادما وربيعا آتيا، وسنظل نحترق اشتياقا الى فوانيس روحه المسكونة بحب عراق جديد لا مكان فيه للعسف... وطن للآمال والأحلام الجميلة.. وطن جسده مهدي في قصائده الجميلة الكثيرة ومنها: (لقطات)، و(من مدينة تعانق النهر)، و(سياج)، و(مواقع)، و(ظهيرة)، و(سحر الكينونة)، و(أمومة)، و (يا خوفي).. وغيرها الكثير.

نودعك يا مهدي بلوعة المحبين المسوعين بمفاجأة فراقك.... لن ننساك أيها الذاهب في شتاء البياض... فأنت من سيفاجئنا خارج مساءاتنا بضحكتك الشفيفة وطيبتك البصراوية الأصيلة ووداعتك. ستكبر فينا صديقا عزيزا، ورفيق درب حفظ الوطن والقضية النبيلة في سنوات عجاف.

للفقيد العزيز مهدي محمد علي الذكر الطيّب..... وللعزيزة أم أطياف والحبيبة أطياف – ولجميع أفراد عائلة مهدي الكبيرة وأحبته ومتذوقي شعره الجميل صادق مشاعر العزاء مقرونة بالتضامن الحار في هذا المصاب الجلل.

هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)
بغداد في ٢٠١١/١١/٣٠

الحزب الشيوعي ينعى الشاعر

ينعى المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي الرفيق الشاعر والأديب المعروف "مهدي محمد علي" الذي توفي يوم الأربعاء الموافق ٢٠١١/١١/٣٠ في أحد مستشفيات دمشق. لقد عرف الفقيد العزيز، في الوسط الأدبي والثقافي بمنجزه الإبداعي المتميز، وتعبيره الصادق عن هموم وتطلعات الناس العراقيين الطيبين صوب الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

كما عرف بنضاله ضد السلطات الدكتاتورية، ومزوري الثقافة الوطنية والديمقراطية، وظل التزامه عاليا بحزبه المجيد، وبشعاره العتيد في الوطن الحر والشعب السعيد.

تعازينا الحارة لرفاقه وأصدقائه ومحبيه الكثر ولعائلته الكريمة، راجين لهم الصبر والسلوان. وللفقيد الغالي الذكر الطيب دوماً.

المكتب السياسي للحزب الشيوعي
العراقي ٢٠١١/١١/٣٠